الفصل الثاني

المسيحية

ما من شيء أكثر أهمية أساسية لنجاحات الغرب، ولطغيانه، ولإخفاقاته من المسيحية، ومع ذلك فالمسيحيون والكافرون بالمسيحية قد يفاجؤون بشكل متساو لدى اكتشافهم كيف قلبت المسيحية العالم القديم بشكل كامل، وحولت علاقات السماء والأرض، ومازالت تحدد طريقتنا في الحياة وتحدد شخصياتنا نفسها، والقصة ليست هي التي تروى في العادة، إنها قصة مخادعة، وشخصية، ومحررة، ومزعجة أكثر مما قيل.

وعلى الرغم من أن رجال الكنيسة والحكام عبر العصور قد كافحوا من أجل إنكار الحقيقة الواقعية، فقد كانت المسيحية ـ ولا تزال ـ بعيدة عن الدين المعتاد، فلقد كانت المسيحية أصيلة في ثلاث نواح: فهي جعلت الله شخصاً موجوداً للأفراد، كما جعلت الناس العاديين مهمين على أعظم نحو وعلى أخطره، وجعلت تحسين الذات للأفراد وفقاً للأغراض الإلهية، أهم عنصر في الكون، وباختصار، فإن النسخة الأصلية من المسيحية كانت كفرية، وثورية، وفردية، ومفتوحة من دون حدود ثابتة، وتدعو للمساواة، وداعية للنشاط، ومتفائلة، ومتعصبة، وشاملة وكانت مع ذلك مقسِّمة، وفوق كل ذلك مشتبكة اشتباكاً ضخماً ومتحدية لكل شخص يقع في دوامة إعصارها.

obeikandi.com

لقد كانت المسيحية أول حركة في العالم مفرِّدة، وداعية نشيطة لمساعدة الذات[1]. وهي أيضاً السبب الرئيس الذي يرى الغربيون العالم من أجله ـ سواء كانوا مسيحيين، أو لاأدريين، أو ملحدين، أو من الأتباع المخلصين كذلك لأديان أخرى على نحو مختلف ويتصرفون على نحو مختلف عن غير الغربيين، ولماذا كان الغرب أنجح من40 أو 50 حضارة أخرى سبق أن أنشئت على سطح كوكبنا؟ فإذا كنا نرغب في سبر غور قوة الغرب، ومجده وتناقضاته، ومساره الذي أسيء فهمه بشكل عميق، فإننا لا نستطيع أن نفعل شيئاً أفضل من البدء بالمسيحية.

جذور المسيحية

على الرغم من أن المسيحية كانت ظاهرة متفجرة وجديدة تماماً، فهي لم ترتفع بنوع من انفجار ديني من نوع الانفجار الكوني الكبير، فالمسيحية مثل معظم التجديدات المذهلة جمعت فكرتين قويتين سابقتين في الوجود وتيارين من الفكر: الأول يهودي، والآخر إغريقي.

(1) من حوالي 400 إلى 700 عام قبل المسيح، دعا كثيرون من المجددين الدينيين والفلاسفة، ومن جملتهم بوذا وآخرون في الهند، وأنبياء العبرانيين وكونفوشيون في الصين، إلى القداسة الشخصية أو أشكال أخرى من وعي الذات، وانتقدوا سلطة الرهبان، و/أو سعوا إلى قلب الدين من مظهر خارجي إلى قناعة داخلية، ولكن المسيحية كانت هي أول دين جعل الخلاص الفردي وتحول السلوك الشخصي عقائده المركزية، وكان أول من بشّر بأن مثل هذا الخلاص موجود لكل واحد في العالم، وأول دين يقيم توسعه على التنصير من دون تمييز لكل واحد، كان يمكن لها أن تصله، وبهذه الصفة كانت حركة مفرِّدة، وداعية نشيطة لتحسين الذات بطريقة لم يكن عليها أي دين آخر في السابق، وهي في أول 300 سنة لها نمت بمعدل لم يسبق لأي دين آخر أن فعله.

آمن اليهود أن التاريخ كان يتحرك إلى الأمام، وأن الله عمل في التاريخ ليحقق غايته على الأرض، وأنهم هم، الشعب المختار، كانوا لاعبين أساسيين في الأحداث التي يكتبها الله، وكانت الأديان الأخرى قد امتلكت آلهة عديدة جداً، وكل إله له جدول أعماله الخاص به، ولكن أحداً منهم لم يكن مهتماً اهتماماً كبيراً جداً بالناس على وجه العموم، ولكن "يَهْوَه"، الإله اليهودي، كان منغمساً انغماساً عميقاً بالتاريخ الإنساني، ويدفعه نحو مستقبل ذهبي، مستخدماً اليهود من أجل الوصول هناك، وآمن العبرانيون بأن تاريخهم سيكون له عواقب روحية ضخمة لكل العالم، وتمتعوا بخط ساخن فريد مباشر مع الله الواحد القوي، وإن وعي هذا الاتصال كان يتضمن جدية أخلاقية غير عادية، إذ الأعمال الإنسانية قررت المستقبل، وفي القرون التي سبقت المسيح، دعت سلسلة متتابعة من الأنبياء البلغاء إلى التجدد الأخلاقي، وإلى العدالة الاجتماعية والرحمة للفقراء والمضطهدين، وبدؤوا بالإشارة إلى أن الأفراد كانوا مسؤولين أمام الله عن أعمالهم، وتوقع الأنبياء مجيء «المسيح» المنتظر عند اليهود، وهو قائد ذو جاذبية متميزة، إلهي سيظهر في آخر الزمان؛ ليقود كلاً من التاريخ واليهود إلى ذروة الانتصار الرائعة.

وفي الوقت نفسه تقريباً، حين كان أنبياء العهد القديم العظماء، وفلاسفة الإغريق يطورون رؤية متوازية - ولكنها مختلفة عن دور الإنسانية في الكون - رؤية كانت مجردة، وعلمية أكثر من سابقتها، ولكنها كانت مع ذلك رؤية روحية على نحو عميق كذلك، ولقد اعتقد المفكرون الإغريق القدامى أن العالم كان نوعاً من العقل الأعلى، وكوناً

منظماً يديره ذكاء متغلغل فيه، وهو يعبر عن هذا الذكاء، وهو واضح في تصميم الطبيعة، ويمكن أن يصل إليه العقل الإنساني والروح الإنسانية المتطوران تطوراً كاملاً، وكان يجب أن تكتشف أرض الحقيقة في العالم الحاضر للخبرة الإنسانية، وليس في عالم غير إنساني غير قابل للتحقق منه، وعلى الرغم من أن رؤية العالم لدى الإغريق كانت مختلفة جداً عن رؤية اليهود، فإنها كانت تعني ضمناً نتيجة مماثلة داعية للنشاط، فيجب أن يكون البشر مستقلين ذاتياً وأن يتولوا المسؤولية عن أقدارهم، والغايات الإنسانية والإلهية يمكن أن ينسجما، وقد صرح زينوفينيز بالقول: «إن الآلهة لا تكشف، من البداية، كل الأشياء لنا، ولكن الرجال، مع مرور الزمن، ومن خلال البحث، يجدون ذلك الذي هو خير»، وقد علَّم أفلاطون أن معرفة الإلهي كانت مدفونة داخل كل روح إنسانية، والتقدير الإنساني للضوء، وللحقيقة، وللخير كان غير كامل ونصف منسي، ولكن الذكاء كان يستطيع أن يضيء معرفة الإلهي، وأن يحصل على الخلود الإلهي أيضاً.

الدين الجديد وأكثر الأديان تجديداً

مزجت المسيحية الأفكار اليهودية والإغريقية وضخمتها، منتجة بذلك رؤية للعالم هي أغرب بكثير وأشد إفزاعاً من سابقتيها، ولكنها مع ذلك رؤية أقوى من سابقتيها بشكل لا يقبل المقارنة.

إن الله يصير على علاقة حميمة مع الإنسانية بإرساله لابنه يسوع المسيح - المسيح اليهودي - إلى الزمان والمكان، ويسوع المسيح، الإنساني والإلهي معاً، يموت مجرماً مصلوباً على أيدي العدالة اليهودية

والرومانية، ولكن هذا الموت ليس هزيمة، فيسوع المسيح يتغلب على الموت ويستعيد مكانه مع الله، وإن حياة يسوع المسيح، وموته، وبعثه هي الأحداث المركزية في كل التاريخ الإنساني، إنها تكشف عن الله، وهو يصل إلى الإنسانية، ويصير شخصاً، ويعاني من دون شكوى، ويبين عملياً حبه لأفراد بني البشر، ويسترد منهم أولئك الذين يدخلون في الدين الجديد، ويمنحهم السعادة في كل من هذا العالم، وبعد الموت إلى حد أكبر بلا نهاية... وينقذهم من إدانة اللعنة الأبدية والعناء الذي ينتظر الكافرين.

يبدأ يسوع المسيح مثل معلم يهودي تقليدي نوعاً ما، والله يعمل في التاريخ، مستخدماً مزيجاً من الأعمال الإنسانية والإلهية؛ ليبين عملياً غاية الله، ويأتي بالتاريخ إلى نهاية مجيدة، وما هو أقل تقليدية، ومع ذلك، فهو ضمن التراث اليهودي على نحو جيد، هو التشديد على رحمة الله، والتقمص الوجداني، والحب، والاهتمام بالفقراء، والخارجيين، وأولئك الذين يعيشون على هوامش المجتمع، وقدرته على أن ينقذ الإنسانية المعيبة ورغبته في ذلك، وتأتي، أيضاً، ضمن التراث النبوي، على الرغم من أن يسوع المسيح أعطاها قوة غير مسبوقة، دعوة الأفراد إلى الاستجابة لله، وأن يحسنوا سلوكهم وأداء فعلهم وأن يظهروا الرحمة والحب في حياتهم اليومية. وقد أعطى العقلُ وأعطت الوسائل تحولاً جديداً ومقنعاً؛ ليحسن المرء شخصيته، والنموذج الكامل مقدم من الله في المسيح، وهو دليل حب الله لنا، والمثال للكيفية التي يحب بها المرء أعداءه، والقدرة على الاستفادة من قوة المسيح لتحسين السلوك.

وخارج التراث اليهودي تماماً، على الرغم من أنه ربما كان غير متوافق معه، تأتي الفكرة الجديدة عن الله المتألم، وإن قيم العالم قد انقلبت رأساً على عقب، فالله ينشر أعظم تأثير له لا بإظهار القوة الإلهية ـ وهي التي أظهرها طوال التاريخ اليهودي ـ ولكن من خلال أقصى شكل للحب، تبين عملياً باحتمال العذاب، وهزيمة العذاب.

كان لهذه الرسالة أصالة عظيمة، وتوافق ملحوظ مع المعتقدات اليهودية، وبعض الجاذبية للجمهور اليهودي، ولكن ليس لها أي جاذبية أبداً للإغريقي أو الروماني المتوسط، ووفق أي طريق تدبرتها، فهي لم تكن صديقة لروما، فالمسيحية، مثل اليهودية الكلاسيكية، أنكرت كل الآلهة الرومانية، زاعمة أنه كان هناك إله واحد فقط، إله اليهود، ومثل بقية اليهود، رفض المسيحيون الأوائل أن يراعوا دين الدولة الرومانية، مع تضحيتها للحيوانات وعبادة المعبد، والشعائر المدنية والأعياد العامة، وأسوأ من هذا إلى حد بعيد، أن الدين الجديد قد عبد يهودياً ميتاً بصفته ابناً لله، والرجل المختار، مهما تكن صفاته الشخصية، كان خاسراً، كان مجرماً منح أقسى شكل من العدالة الرومانية، والروماني المهذب قد ينظر إلى المسيحية بصفتها عبادة يهودية صغيرة، وإن كانت شاذة، ولكن المسيحية بالنسبة إلى الرجل العادي في الميدان العام، إذا لاحظها مطلقاً، كانت مهينة ومؤذية.

وهكذا، فالمسيحيون الأوائل جميعهم كانوا يهوداً تقريباً، وكانوا يراعون العبادة اليهودية، والشعائر اليهودية وقوانين الطعام اليهودي،

وفي العقد الذي جاء بعد وفاة يسوع المسيح، بدا أن دينه قد وضع ليركد، فبدا واحداً من الطوائف العديدة الصغيرة واليهودية الغامضة.

ولكن انتظر، فلقد كانت المسيحية على وشك أن تتلقى تأثيراتها الإغريقية، وتصير أقوى فكرة على ظهر الأرض، فمن الذي كان مسؤولاً عن الشحن التوربيني، وفي جزء كبير عن خلق، المسيحية؟ ثلاثة رجال نابهون ناشطون في النصف الثاني من القرن، الأول: بطرس من طرسوس، وهو يهودي، متعلم بالإغريقية، ولوقا، الذي لم يكن يهودياً أبداً، و«يوحنا»، مؤلف الإنجيل الرابع[1].

كان بطرس نشيطاً في الأربعينيات، والخمسينيات ومطالع الستينيات من عصر المسيح، وكان أول مسيحي يكتب أي شيء عن الدين الجديد الذي غيره وشكله، وبطرس لم يقابل المسيح أبداً، وأظهر القليل من الاهتمام بحياة المسيح إلى درجة تلفت الانتباه، وفي كل رسائله، كان هناك فقط بضع إشارات إلى ما فعله المسيح أو قاله، ولقد كانت فكرة المسيح، الذي قام بعد الموت، هي التي سيطرت على انتباه بطرس، وبالنسبة إلى بطرس، لم يكن المسيح شخصاً عادياً، ولكنه الابن الخالد لله، إذ إن طبيعة الله صارت ظاهرة ظهوراً كاملاً في المسيح فقط، فهو الذي صالح العالم الإنساني مع الإلهي.

(1) انظر كيث هوبكنز (1999) عالم مليء بالآلهة: وثيون، ويهود، ومسيحيون في الإمبراطورية الرومانية. أوريون، لندن، وأندرو ويلبرن (1991) بدايات المسيحية: جوهر السر، وحي اللاأدرية والرؤية المسيحية، فلوريس بوكس، أدنبرة.

إنجيل لوقا وأعمال الرسل عنده ـ وهي التي كانت أطول من كل كتابات بطرس، وضمت ربع ما صار يعرف بالعهد الجديد تقريباً ـ كتبت من أجل الإغريق والرومان، وهذه الكتابات روت كيف أن المسيحية تحركت إلى ما وراء تراثها اليهودي، وصارت ديناً شاملاً.

وكانت قصة لوقا عن بطرس بقدر ما كانت عن المسيح، وكان بطرس قد أراد التبشير والوعظ لأولئك الذين هم خارج الإيمان اليهودي، وأن يسمح لهم أن يتحولوا إلى مسيحيين، معفياً لهم من محرمات الطعام اليهودي والمتطلبات الدينية الشعائرية الأخرى، وقد كان بطرس، المعين من المسيح ليتابع تنفيذ عمله، ضد هذا بشكل قوي، بعدئذ، في رواية لوقا، رأى بطرس حلماً، تمثل في صحيفة تركت تهبط من السماء، مليئة «بالحيوانات والزواحف والطيور» التي كان اليهود يعتقدون أنها «نجسة»، وأمر صوت من السماء بطرس أن يأكلها، واعترض بطرس، فقيل له مرة أخرى أن يأكلها: «لا تقل عن أي شيء: إنه غير طاهر، وكان الله قد خلقه طاهراً». فَهِم بطرس الرسالة: يجب على المسيحية أن تصير متعددة الثقافات ومتعددة الأعراق، ورحب بطرس بكورنيليوس، وهو غير يهودي بارز، بوصفه مسيحياً كامل المكانة، وقال بطرس: «أنا الآن أدرك، كم هو صحيح أن الله لا يظهر المحاباة، ولكنه يكسب الرجال والنساء من كل أمة»[1].

في تبشير بطرس الإغريق والرومان، أعاد تفسير الرسالة، فجعلها متوافقة مع رؤية الإغريق أن العالم كان كوناً منظماً، وكانت الإنسانية

(1) أعمال الرسل، 10. 34 - 35.

تتعلم عنه المزيد والمزيد، فقال بطرس: المسيح فتح الطريق إلى الله، ومن خلال المسيح، استطاع الرجال والنساء أن يفهموا طبيعة الكون وطبيعة الله واستطاعوا كذلك أن يكسبوا الوصول إلى الله.

وطُوّرت فكرة بطرس تطويراً كاملاً من كاتب آخر، هو «يوحنا»، مؤلف الإنجيل الرابع العظيم والعميق بشكل لا يقارن بما قبله، وهوية يوحنا سر غامض[1]. ويظن أنه مثل لوقا، كتب في إفيوسوس (وهي الآن في تركيا)، وعلى الرغم من أنه جاء بعد لوقا، ويرجح أن يكون ذلك عند بداية القرن، وقد بدأ يوحنا روايته بأسلوب أخاذ: «في البدء كانت الكلمة (اللوغوس)»، وكان كل متعلم روماني، وأي شخص غيره انتفع من الثقافة الإغريقية، قد عرف فكرة اللوغوس، وكان يستطيع الآن فوراً أن يربط مع القصة، قصة اليهودي المصلوب أعيد وضعها بصفتها التحفة الرائعة للفلسفة الإغريقية المعاصرة.

فيلو الإسكندراني، وهو معاصر أكبر سناً من المسيح ومن بطرس، كان قد ابتدع من قبل تركيباً يهودياً إغريقياً مؤسساً حول مفهوم الكلمة اللوغوس، وقال فيلو: إن اللوغوس عَنى أفكار الله، وكان يمكن فهم اللوغوس في ثلاثة طرق: الفكرة المركزية التي تدفع الكون، وعامل الخلق، والعامل الذي استطاع الإنسان من خلاله أن يفهم الله، وبضربة واحدة لامعة، جعل يوحنا من المسيح هو اللوغوس، مؤنسناً

(1) يعتقد كثيرون من العلماء أن الإنجيل الرابع استلهم ووثق من جون زبدي، صياد سمك سابق صار «التلميذ المحبوب»، ولكن الإنجيل كتب من عالم دين تدرب في الإغريقية، ويحتمل أن يكون يوحنا الأكبر، تابع يوحنا زبدي.

الله ومشخصناً له وممكّناً له أن يكون مفهوماً في طرق فيلو الثلاثة، وكان المسيح هو الذكاء هو الذي يرتب الكون، وخالقه، والطريقة التي استطاع بها البشر أن يفهموا الله ويصلوا إليه، وإن الاختراق المفاهيمي الذي جاء به يوحنا كان متوافقاً مع التبشير الأسبق من بطرس، ولكن يوحنا أخذه إلى مستوى جديد سام، فلقد أعاد يوحنا تفسير المسيح وألهه بطريقة لم يسبق لأحد من قبل أن تجرأ عليها، وتفاصيل المسيح التاريخي صارت مجرد خلفية لرؤية جليلة، محررة للإنسان ولله، وهي غير مقيدة مطلقاً بالتاريخ، أو الجغرافية، أو العرق، أو المعتقد، أو الثقافة، فالرجال والنساء يستطيعون المشاركة في طبيعة الله؛ لأن كل مخلوق بشري امتلك داخله الشرارة الإلهية.

كان هذا حين بدأ كل شيء بالانفجار، فكل الأفكار اليهودية الغريبة التي كانت خلف المسيحية تُرجمت إلى إطار العمل المفاهيمي الإغريقي، وهو ما جعل الدين الجديد أكثر تعقيداً من الناحية الفكرية، ولكنه جعله أيضاً أكثر جاذبية من الناحية الشخصية، وفي متناول الناس العاديين، وغير المتعلمين والأميين، والمسيحية الجديدة ضمت اعتقاداً واحداً متجاوزاً، وأربعة مضامين عمل عملية، وكل واحد منها جلجلت أصداؤه عبر التاريخ، مثل البركان:

- كان الاعتقاد المتجاوز هو أن الله صار إنساناً، عاش، وعانى، ومات، وعاود الالتحاق بالمملكة الإلهية، وهذه الأنباء الرائعة حركت الإنسانية والله معاً.

- وكان مضمون العمل الأول ارتفاعاً ضخماً للتطور الشخصي للفرد ومسؤوليته.
- ومضمون العمل الثاني كان القوة الموجودة خلف تحسين الذات، وهو الزعم المذهل أن كل المؤمنين يستطيعون أن ينفتحوا مباشرة إلى حب الله، بل أن يصيروا جزءاً من الله.
- ومضمون العمل الثالث كان التزاماً غير مسبوق نحو الفقراء والمعدمين، والخارجيين.
- ومضمون العمل الرابع والأخير هو أن المسيحية أقل سعادة، فلقد كان لدى المسيحيين الأوائل إحساس حارق بأن التحول إلى المسيحية صنع الفرق بين السعادة الأبدية والعذاب الأبدي، ومن هنا صارت المسيحية هي أول دين تبشيري وأنجحه.

الاعتقاد المتجاوز ـ الله صار إنساناً

ونتيجة لذلك، فإن كل مسار التاريخ الإنساني، والقَدَر الممكن لكل شخص على الأرض، تحول نحو الأفضل إلى مدى لا حد له «وصار اللوغوس هو اللحم وعاش بيننا» ويكشف حب الله اللانهائي للإنسانية، وبسبب هذا الحدث المفرد، صار الخالد تاريخياً، وصار الإلهي شخصياً، وصارت الحيوات الفردية ـ ومنها حيوات أولئك الذين هم غير استثنائيين تماماً، وأناس عاديون ـ مهمة أهمية سامية، وكل النساء والرجال يستطيعون الوصول إلى الطبيعة الإلهية، وتستطيع روح الله أن تسكن داخلهم.

obeikandl.com

مضمون العمل1: تحمل مسؤولية شخصية

العبرانيون، مثلهم مثل كل قبيلة أخرى، اعتقدوا في الأصل أن الذّنب والبراءة من الذنب يلحقان بالقبائل كلها، لا بالأفراد[1]، ولكن في أثناء نفي اليهود في بابل، في القرن السادس قبل المسيح، صرح النبي حزقيال أن المسؤولية تقع على الفرد لا على العائلة أو القبيلة[2]، وأسهب الأنبياء الذين جاؤوا من بعد في الموضوع، وصارت المسؤولية الشخصية مقررة من الله، وذهبت المسؤولية الفردية إلى أبعد من مراعاة القانون، فلقد تطلبت كذلك أعمال الرحمة والعدالة الاجتماعية.

لقد مد المسيحيون كلاً من رؤيتي اليهود والإغريق عن الإمكانية الإنسانية، ولكنهم ذهبوا إلى أبعد كثيراً كثيراً، فالمسيح، وبطرس، ويوحنا والكتاب الآخرون للإنجيل أصروا على أن كل فرد واجهوه ـ نساء ورجالاً على حد سواء ـ يجب أن يتولى مسؤوليات الحرية الداخلية، فالحق اليهودي المكتسب مع الولادة في الوصول إلى غاية الله وحبه قد جُعل حقاً شخصياً وشاملاً، فمن خلال المسيح، اكتسب الله فجأة موقعاً جديداً داخل الناس، في النفس الإنسانية، والروح الإنسانية، وكان بطرس هو أول من قرر بوضوح أن المسيح يستطيع أن

(1) في سفر الخروج 20. 6 - 4، خطيئات الآباء «سوف تصيب الأبناء حتى الجيل الثالث والجيل الرابع»، وتدمر عائلات كاملة، حين يموت رب العائلة أو القبيلة (على سبيل المثال، جوشوا 7)

(2) «النفس التي تخطئ هي التي سوف تموت، ولن يشارك الابن في ذنب الأب، ولا سيشارك الأب ذنب الابن» (حزقيال 20018).

يعيش داخل كل مؤمن، وحين تكلم بطرس إلى الأثينيين، أعاد تشكيل المسيحية في ألفاظ إغريقية صديقة:

قال بطرس، وهو يقف في وسط السوق:

... إن الله ليس بعيداً عن كل واحد منا؛ لأننا «فيه نحن نعيش ونتحرك ونمتلك وجودنا» بل كما سبق أن قال بعض من شعرائكم، «لأننا في الحقيقة ذريته»[1].

وكتب بطرس إلى المسيحيين في كورينث: «جسدكم معبد للروح المقدس داخلكم»[2]. بل لقد ذهب مسيحي قديم آخر إلى أبعد من ذلك: «الله حب، والذي يعيش في الحب، يعيش في الله، والله يعيش فيه»[3]. وبحسب ما يقوله القديس بطرس، فإن المؤمنين الأفراد يستطيعون «أن يصيروا مشاركين في الطبيعة الإلهية»[4].

وكانت فكرة الفردية قد تأكدت بطريقة جديدة، مرتبطة معاً مع الله، ومع الآمر الأخلاقي لتحسين الإنسان لذاته، وكانت الفردية تعني التطور، وهو التزام، رعاه الوعي بحب الله المدهش، غير المحدود، ليصير الإنسان شخصاً أفضل وأكثر نفعاً.

من العسير علينا اليوم أن نفهم تماماً أي نوع من الاختراق شكلته هذه الفكرة في ذلك الوقت، وأي رؤية للعالم مذهلة، وقد جاءت على

(1) أعمال الرسل 22017، 27 - 9.
(2) الكورنثيون 1906 - 20.
(3) يوحنا 1604.
(4) بطرس 401.

عكس ما تتوقعه البصيرة، كانت هذه الفكرة في ذلك الوقت، وهي الفكرة التي جاءت عن الإمكانية الشخصية والفردية وعن الالتزامات الشخصية والفردية، ولقد بدأت بالادعاء المسيحي الأصيل أصالة كاملة أن الله القوي، خالق السماء والأرض، كان مهتماً اهتماماً عميقاً في صلاح كل شخص فرد في العالم. «إن الله أحب العالم كثيراً، إلى درجة أنه أرسل ابنه الوحيد» إلى الأرض، ليعاني وينقذ لا الإنسانية على مستوى جماعي، بل على مستوى بني البشر الأفراد، فلقد عمل الخلاص على مستوى الشخص المفرد، ولأول مرة في أي وقت سبق، آمن المسيحيون بإله شخصي، قادر على أن يرتبط بأفراد البشر المنفصلين، والله عند المسيحيين امتلك اهتماماً مباشراً وعميقاً بالقضايا الإنسانية، واهتماماً ملحاً في كل مخلوق بشري، مهما تكن مكانتهم أو قوميتهم.

وبالنسبة إلى الإغريق والرومان، فإن مفهوم أن الله ـ أي إله ـ اهتم بالأفراد، واهتم أقل من ذلك بما كانوا يفعلون، كان ببساطة مفهوماً غير قابل للإيمان به، وكثيرون من المسيحيين الأوائل، وخصوصاً إذا لم يكونوا يهوداً، وجدوا هذا الاعتقاد عسيراً على البلع[1]. ومع ذلك، فإن الرأي المسيحي في الاتجاه السائد عن المسؤولية الشخصية أمام الله هو الرأي الذي ساد، محولاً بذلك مسار التاريخ الغربي.

(1) على سبيل المثال، مارشيون، المجدد المسيحي الراديكالي واللاأدريّ (المؤمن بالمعرفة السرّية) الذي أثر تأثيراً كبيراً في منتصف القرن الثاني، قال: إن الله لم يهتم كيف عاش الأفراد.

مضمون العمل 2: استخدام قوة المسيح للتغيير

تطلبت المسيحية طريقة حياة جديدة، تقوم حول الحب، والنفع («الخدمة») للناس الآخرين، والتطوير الكامل لقدرات الفرد، ولم يسبق لدين من قبل أبداً أن طلب مثل هذا الالتزام الفردي، ولكن المسيحية أيضاً قدمت الوسائل، والتقانة اللازمة لطريقة الحياة الجديدة، وهذه أيضاً كانت مفرَّدة تفريداً عميقاً، ولم تكن مسألة قواعد وتنظيمات، أو انسجامٍ مع سلطة دينية، فإن الله غرس في كل فرد مسيحي إحساساً بالحق والباطل، وضميراً، ووعياً بالذات وبالمعرفة لما ينبغي الكفاح من أجله، وأفضل من ذلك، أن المسيح أعطى المسيحي الفرد طريقاً مباشراً إلى الله، ومن الله.

كان بطرس مستثاراً بفكرة الحرية التي أعطاها المسيح إلى الفرد، وكتب إلى المسيحيين في غاليثيا، «وعلى الرغم من ذلك فنحن، حين كنا أطفالاً، كنا في استرقاق تحت عناصر العالم... الآن، في المسيح، نحن أحرار»[1]. ومن خلال الوصول إلى القوة الإلهية في المسيح، تستطيع الشخصية أن تعتمد على مصادرها الداخلية، التي وضعها الله هناك، وبهذا تحقق الشخصية الثقة وحرية العمل بوصفها شخصاً مستقلاً استقلالاً ذاتياً.

وأصر بطرس، على أنه ما من أحد كان خارج قبول المسيح وحبه ـ لا المذنب، ولا المنبوذ، ولا قتلة المسيح كذلك، ولقد عانى بطرس

(1) الغاليثيون 304.

إحساساً عميقاً من ذنبه الخاص ومن فساد أخلاقه، وقد خَبَرَ لطف الله وعنايته من خلال المسيح، واخترع فكرة الاستسلام لحب الله غير المشروط طريقاً إلى إزالة الذنب وبدء العيش على النحو الصحيح: «لأن حب الله يضبطنا»[1]. لقد كان عبثاً أن يحاول المرء أن يتحسن بجهوده الخاصة، إن الاستسلام فقط لقوة أكبر ـ قوة مكونة بكاملها من الحب ـ هو الذي يمكن أن يعمل.

ووصّل لوقا الرسالة نفسها في صيغة مختلفة، فلقد أخبر كيف دخل الروح القدس التلاميذ في يوم عيد الخمسين، واستطاع الإنساني والإلهي أن يمتزجا، واستطاع أتباع المسيح أن يحققوا معجزات أكبر من تلك التي حققها المسيح، من خلال قوة روح المسيح، وتحت التأثير الإغريقي، صار هذا في نهاية المطاف هو فكرة «الروح»، فكرة أن كل الأشخاص امتلكوا داخلهم نفساً مُشَخْصَنَة وجوهرية خالدة، وهي التي ربطتهم إلى المملكة الإلهية وأقدرتهم على تحسين أنفسهم[2]. ومع مجيء القرن الرابع، تجرأ رجل اللاهوت أثاناسيوس على أن يأخذ فكرة الإلهام الإلهي إلى نتيجتها المنطقية، وقال: «إن الله

(1) كورنثيون 1405.

(2) لم يتحدث المسيحيون الأوائل عن «الروح» ـ فالكلمة نادراً ما يمكن أن توجد في كل العهد الجديد ـ وآمنوا بالبعث الجسدي بعد الموت، ولكنهم تحدثوا، مع ذلك، عن الحياة الداخلية، وعن «الله» و«المسيح» و«الروح القدس» الذين يعيشون في الداخل ويوجهون المسيحيين، أما فكرة الروح، التي كان لها على الرغم من ذلك وجود طويل وغامض في الغالب قبل التاريخ، فقد صارت مؤثرة في المسيحية من خلال التأثيرات الإغريقية، وخصوصاً من خلال تأثيرات أفلاطون =

صار إنساناً لكي نصير نحن الله». ورأى المسيحيون بعد ذلك تجلي قوة الله في كل ما حققته الإنسانية في العلم، وفي الطب، وفي الحضارة الليبرالية.

مضمون العمل 3: ساعد الضحية المستضعف

ركز المسيح، إلى مدى يلفت النظر، على الخاطئين، والعاهرات، والمضطهدين، والمرضى والعُرّج، والأجانب وغير اليهود، فكلهم كانوا محبوبين من الله، وكلهم كانوا يستحقون الاحترام.

لقد أعطى بطرس أول بيان عن مساواة الإنسانية والأخوة سبق أن سجل في كل الأزمان، وقال: «ليس هناك يهودي، ولا إغريقي، عبد أو حر، ذكر أو أنثى؛ لأنكم جميعاً واحد في المسيح يسوع»[1].

والرواية الآتية عن المسيح جاءت من مرقص، فقد كان إنجيله القصير مليئاً بقصص المسيح، وهو يشفي المنبوذين - الرجل المشلول، والمتشرد الذي استحوذ عليه الشيطان المختبئ في المقبرة، والمرأة

= وفيثاغورس، اللذين روجا فكرة الروح الخالدة، ويجب أن نلاحظ، مع ذلك، أن معظم الإغريق لم يؤمنوا بالجزاء والعقوبات بعد الموت، فلقد كانت المسيحية هي أول دين يقرر بشكل ثابت أن الخلاص والإدانة الخالدين كانا هما البديلين الوحيدين، وفكرة «الروح» المسيحية لاحقاً صارت هي المستودع الملائم للروحانية المفرَّدة وجسراً يوصل إلى المفهوم الحديث «للنفس»، وكلتا «الروح» و«النفس» كانت صحيحة فعلاً، وإذا كان فيها مفارقة زمنية، فإن تأملات الرؤية المسيحية الأصلية أن الله يستطيع أن يعيش في كل مخلوق بشري ويغير سلوكه أو سلوكها بطريقة مشخصنة ومفرَّدة على نحو كامل.

(1) الغاليثيون 2803.

المتـــألمة، والطفل الذي يموت، والرجل الأصم والأخـــرس، والرجلين الأعـميين، والولد الذي تستحوذ عليه روح شريرة - والمسيح يطعم حشدين اثنين عظيمين، واختار المسيح الناس المتواضعين تلاميذ له، وامتدح أرملة فقيرة، ورفض أن يهمل مجموعة من الأطفال غير المهمين، «لأن مملكة الله تخص مثل هؤلاء». والشخص الوحيد الذي لم يستطع أن يساعده المسيح كان هو الشاب الغني، الذي أحبه المسيح، ونصحه أن «اذهب، وبع كل شيء تملكه، وأعط الفقراء... وبعدئذ تعال، واتبعني، وعند هذا سقط وجه الرجل، وغادر المكان وهو حزين؛ لأنه كان يمتلك ثروة عظيمة»[1]. وعلى الرغم من المنظور اليهودي لماثيو، فقد بدأ إنجيله باستحضار المنجمين غير اليهود إلى المسيح الطفل، وأغلق إنجيله بالمسيح الذي أقيم مخبراً الرسل بأن «اذهبوا وتلمِذوا تلاميذَ من كل الأمم»[2].

وأضاف إنجيل لوقا السامريَّ الطيب، والابن المسرف، والأحمق الغني، والغنم المفقودة، والقاضي غير العادل، والفريسي المتكبر الذي قوبل مقابلة معادية بجامع الضرائب المتواضع، وفي الناصرة، اقتبس المسيح من إشعيا: الله «مسحني؛ لأبشر بالأخبار الطيبة للفقراء... ولإعلان الحرية للسجناء، ولاستعادة البصر للعميان، ولإطلاق المضطهدين...»[3]. والصحيح هو أن كل أديان العالم العظيمة تشدد

(1) مرقص 10. 21 - 2.
(2) ماثيو 28. 19.
(3) لوقا 4. 18.

على العدالة، وعلى الاهتمام بالفقراء، ولكن من بين كل الأديان، كانت المسيحية الأصلية الأولى هي أكثرها راديكالية، ودعوة للمساواة والشمول، وسحقت كل الحواجز بين الناس، حتى الحاجز بين الأفراد وبين الله، وليس مصادفة أن الغرب كان الحضارة الوحيدة في كل الأوقات التي ألغت تجارة الرق، طوعاً، وأول حضارة تلغي الجوع وتقهر، إلى مدى كبير، الموت المبكر، وأول حضارة تضع في المكان المناسب إطارات عمل المساندة الاجتماعية للمواطنين، وأول حضارة تمنح الحرية والمساواة للرجال العاديين، ولاحقاً للنساء، وتبدأ بإزالة التمييز ضد الأقليات المحددة بالعرق، أو اللون، أو العجز، أو التفضيل الجنسي.

مضمون العمل 4: أنقذ الملعون

كانت المسيحية، من البداية نفسها، شاملة، بمعنى أنه يمكن لأي شخص أن يُنقَذ، وكانت مفرِّقة في الوقت نفسه، أي أن المنقَذين ضد الملعونين، وهناك تعصب مشبوب العاطفة، يبلغ حد العنف، وهو كامن في الموروِّثات المسيحية من البداية تماماً، وهو في حالة توتر بارز مع توكيد المسيحية الآخر للحب والتضحية بالذات.

لقد مثَّل ماثيو هذا التراث المظلم، وصور المسيح يقصي التجار بعيداً عن المعبد، «يقلب طاولات صرافي العملات ومقاعد أولئك الذين يبيعون الحمام»[1]. وروى عن المسيح قوله: «لا تفترضوا أنني قد جئت لأجلب السلام إلى الأرض، فأنا لم آت لأجلب السلام،

(1) ماثيو 21. 12.

ولكن لأجلب السيف، وذلك لأنني جئت لأحول «الرجل ضد والده، والابنة ضد أمها، والكنة ضد حماتها ـ أعداء الرجل سيكونون أعضاء بيته الخاص به»[1].

إن رواية ماثيو هي التي يشجب فيها المسيحُ المدن التي لم تستمع إليه: «الويل لك، يا كورازين! الويل لك، يا بيت سيِّدا!... وسيكون الأمر أكثر احتمالاً بالنسبة إلى صور وصيدا في يوم القيامة منك...»[2]

كان ماثيو مهتماً بجهنم، وعلى صرير الأسنان والعذاب الخالد في الحفر الحارقة، والعقيدة اللاحقة عن «المختارين» ـ فكرة أن قلة فقط سوف تكون ناجية، في حين أن معظم الإنسانية ترسل إلى لهيب جهنم ـ يمكن تتبعها والعودة بها إلى القصة الرمزية في ماثيو عن الأبواب الضيقة والأبواب الواسعة[3]. وفي إنجيل يوحنا، الذي كُتب حين كان اليهود الأرثوذكس يحرمون اليهود المسيحيين ويعزلونهم، وجدت مسحة مزعجة من معاداة السامية، فيوحنا جعل المسيح يقول لليهود: «أنتم من الأسفل... أنتم تنتمون إلى أبيكم الشيطان، وأنتم تريدون أن تنفذوا رغبة أبيكم. لقد كان قاتلاً من البداية»[4]. إن الميل إلى فرض الأفكار الصحيحة بالقوة، وتقسيم العالم إلى غنم وماعز، وإلى صليبيين ضد الكفار والميل إلى العنف ضد اليهود، وإلى القتل الجماعي في سبيل متابعة انتقام الله، وإلى فرض القانون «المسيحي»

(1) ماثيو 10. 34 - 6 المسيح يقتبس من مايكا.
(2) ماثيو 11. 20 - 4.
(3) ماثيو 1307.
(4) يوحنا 8. 21 - 44.

على الوثنيين العصاة، وإلى التعصب والقسوة في متابعة غاية «أعلى»، وإلى محاكم التفتيش، وإلى التوغل في الأفكار الخاصة باستخدام التعذيب، هي كلها جزء من التراث المسيحي للغرب، وهذه الموضوعات المتنافرة مازالت لها أصداء في صفوف بعض المسيحيين الأصوليين، ومع ذلك، وبصفة عامة، وطوال قرن ونصف على الأقل، كان التعصب المتطرف يُحذَف من المسيحية، ولكنه يستمر، مع ذلك، في الظهور ثانية، في مظاهر عَلْمانية، وفي الرعب الثوري، وفي القومية المتطرفة، والشيوعية، والنازية، وفي تشويهات الأديان الأخرى، وهذه المظاهر، أيضاً، جاءت إلى درجة كبيرة من المسيحية والغرب.

التحريف، والتغيير والإصلاح

حركة المسيح الأصلية كانت في السوق لذوي الدخل المحدود، وثورية، ومدفوعة بالاعتناق الفردي لها، وكان عدد المسيحيين صغيراً، مع أنه كان ينمو نمواً سريعاً جداً[1]. وكانوا موزعين في العديد من مدن البحر الأبيض المتوسط المركزية والشرقية، وكانوا يجتمعون،

(1) أفضل تخمين هو أنه كان هناك أقل بشكل ملحوظ من 10.000 مسيحي في العام 100 من عصر المسيح، وحوالي 200.000 في العام 200 من عصر المسيح، ونظراً إلى أن السكان الرومانيين في العام 200 من عصر المسيح كانوا حوالي 60 مليون نسمة، فقد كوَّن المسيحيون 0.3 بالمائة فقط من مجموع السكان، ومن ناحية أخرى، كان العدد على الأرجح ينمو وفق معدل نمو سنوي مركب من 4 - 3 بالمئة، وذلك حتى بلوغ العام 200 من العصر المسيحي، وكان المعدل أقرب إلى 6 بالمئة في القرن الآتي، وبحلول العام 300 من القرن المسيحي، فمن الممكن أن يكون قد صار هناك ستة ملايين مسيحي في الإمبراطورية الرومانية، أي، 10 بالمائة من السكان.

أحياناً، في السر، في جماعات نظام ديني منزلي صغيرة، والرسالة الراديكالية من تطور الفرد، والوصول إلى الله الشخصي، وإلى الحب، وهي الموضوعات التي كانت مهيمنة في القرنين الأولين، تغيرت تغيراً بارزاً في القرنين اللاحقين، وبعد اعتناق الإمبراطور قسطنطين للمسيحية في العام 312، صارت المسيحية محرفة إلى دين روماني إمبراطوري، فروما السلطة السياسية فرخت الكنيسة السلطوية لروما، والمسؤولون المسيحيون الآن اندمجوا في النخبة الرومانية، وصاروا في الأغلب أثرياء وأقوياء، ويبنون تراتبية هرمية كنسية تفصيلية مركزية، مع محاكمها الخاصة بها وعقوباتها؛ لتوازي، وأحياناً تتحدى، نظيراتها الإمبراطورية، والتنافس الذي كان موجوداً بين العقائد المسيحية المختلفة أُنهي بشكل مفاجئ بإعلانات المجالس الكنسية، وحُدّد تعريف العقيدة، والزندقة (الهرطقة). وصار المضطهَدون هم المضطهِدين، والرسالة المسيحية البسيطة، والروح المسيحية الأصلية المستندة إلى خبرة شخصية مع الله، صارت مكسوة بالأحكام الدينية التفصيلية، ومهذبة إلى درجة عدم الفهم، والخط المباشر مع الله انقطع، وصارت الكنيسة أهم من أعضائها.

وحين سقطت الإمبراطورية الرومانية ـ بحسب إدوارد غيبون، نتيجة للبربرية والدين ـ تولت الكنيسة الرومانية مقاليد القوة، ومع ذلك فإن المثل الأعلى، المدون بوضوح في الأناجيل، لن يختفي. ومهما ظهرت المسيحية جبانة ومتابعة في الدين، فقد كانت هناك دائماً عناصر من البحث في الروح، ونقد الذات، والضمير، والفردية الخلاقة، ومحاولات لإعادة تأسيس العلاقة المباشرة مع الله، وبقيت حية المثل العليا للمسؤولية الشخصية وأهمية الحياة الداخلية.

بعد حوالي العام 1100، وبمساعدة من التفاعل مع علماء مسلمين، أعيد اكتشاف العلم والفلسفة الإغريقيين وطُورا أكثر على يد جامعات جديدة ذات استقلال ذاتي، وتعمقت الروح الإنسانية، وحلّق الإبداع وتضاعفت مورّثات الفردية المسيحية والحرية الفردية تضاعفات ضخمة.

في العام 1517، ثار مارتن لوثر ضد سلطة الغرب العليا الدينية والثقافية، وأعاد تعريف المسيحية، واستعاد الإصلاح البروتستانتي العلاقة بين المؤمنين الأفراد وبين الله، مزيلاً دور الكنيسة بوصفها وسيطاً، وتحت «كهنوت كل المؤمنين»، وقف كل شخص مرة أخرى أمام الله، وهو مسؤول عن خلاصه أو خلاصها الأبدي أو إدانتها، فلوثر، الذي كان راهباً في السابق، تزوج راهبة سابقة، وبدأ تكوين أسرة، إذ عفة الامتناع عن الزواج تُرِكت وخرجت وصارت الحِظْوة للزواج المقدس.

وحمل دينُ جون كالفن الصارم المسؤولية الشخصية إلى مرحلة أبعد، فصار العمل الدنيوي المسيحي والنجاح مؤشراً هادياً للمكانة الروحية، وفي غضون قرن أو ما قارب ذلك، في البلدان البروتستانتية، وخصوصا تلك التي لامستها الكالفينية، صارت المسؤولية الفردية، والتعبير الفردي عن الذات وتحسين الذات الفردي من خلال العمل الشاق والأمانة هي النبضات التلقائية، ولم يبق الدين يطلقها بعد الآن، ولكنها جزء جوهري لا يتجزأ من طريقة الحياة الفردية ومن تقدير الذات.

موت الله

نظراً إلى أن الغرب أخذ العلم والبحث العقلي إلى مدى أبعد من أي حضارة أخرى ـ مستلهماً في ذلك إلى حد كبير رغبة المسيحية للاحتفاء بخلق الله وفهمه ـ فقد كان الغرب أيضاً الأول في التحرك نحو مجتمع علماني، وكانت إحدى النتائج غير المقصودة للإصلاح هي فصل العلم عن الدين.

ومن غير معرفة وقصد، حرك العلم التركيز تحريكاً ثابتاً من الله إلى الطبيعة والإنسانية، فنيكولاس كوبرنيكوس (1473 - 1543) حرك الأرض من مركز الخليقة، وصارت مجرد كوكب آخر، وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر، صار الله صانع ساعة سماوية، فبعد أن أنهى خلق الكون وضبط نظامه، تركه لتديره القوانين الطبعية، ورأى تشارلز دارون (1809 - 1882) البشر مثل بقية الحيوانات، منتَجاً للتطور والارتقاء، أما فريدريك نيتشة (1844 - 1900) فقد أعلن أن «الله ميت» ـ كان الله في العادة موجوداً، ولكن التطور والارتقاء تقدم، وجاءت اختراقات العلم في القرن العشرين، فجعلت الاعتقاد بأن الكون كان مصمماً تصميماً خاصاً للمنفعة الإنسانية يبدو اعتقاداً قديماً غريباً.

وفي مسيرة التقدم، تغلبت القيم العلمانية الغربية على القيم المسيحية، وإن معرفة إنجيلية طوال قرن قد كشفت عن الأصول الإنسانية، للمعتقدات المسيحية الأولى، وعن التدفق المستمر فيها،

متسائلة لا عن الاعتقاد فقط بأن الإنجيل كله يمكن أن يكون كلمة الله المنزهة عن الخطأ، بل عن المعجزات، وعن الولادة العذرية كذلك، وعن فكرة أن المسيح قصد إلى أن يؤسس ديناً أيضاً.

المسيحية مقسومة إلى نخبة متقدمة وغير واثقة من نفسها، يجب عليها حتى الآن أن تصالح العالم الحديث، مع إعادة تفسير العقائد التقليدية، وإلى الحركة الإنجيلية، التي تتطلب حيويتها إنكار الحقائق من العلم والمعرفة الإنجيلية، والأصوليون يربحون، والطوائف البروتستانتية المتسامحة الواسعة الفكر الرئيسة، والجناح الليبرالي من الكاثوليك، ليس لديها إلا القليل لتقوله، وهي تخسر الأعضاء في كل يوم، في حين تزدهر تجارة الإنجيليين في اليقينيات، وإلى حد أقل في التقليد الكاثوليكي السلفي السلطوي.

ويمكن رؤية الانقسام داخل المسيحية، بوصفه عالماً مصغراً من كل الانقسامات في الغرب اليوم، المركز لا يمسك، فكثير من المسيحيين يكره المسيحيين الآخرين ـ كما هو في النزاع حول الأساقفة اللواطيين ـ مع عاطفة لا يستطيعون السيطرة عليها للتقدم بالمسيحية نفسها، وفي الوقت نفسه، فإن الأفكار الدولية الكوزموبوليتانية والمتقدمة، ومواهبها الثرية من أجل منفعة الإنسانية، تقف من غير أن يُدافَع عنها، ومن غير توكيد لها، ولو من المفكرين الذين يؤمنون بها، وذلك خوفاً من الظهور بمظهر الجاد أو النخبوي، ويروج الجهل والشعوذة، وتحتل الحكمة والمعرفة بإرادتها مقعداً خلفياً.

إن تزايد علمنة المجتمع الغربي، وانهيار الإيمان بالله، وخصوصاً بين المفكرين وعلماء العلوم الاجتماعية، والانقسام المتزايد الحاد داخل المجتمع المسيحي، الذي يعكس اختلافات عميقة في رؤية العالم، هي قضايا خطيرة بالنسبة إلى الغرب. وفي البداية، فإن خسوف الإيمان بالله لم يدمر التفاؤل، أو المسؤولية الفردية أو الإيمان بالتقدم، وفي القرن الأخير، مع ذلك، فقد مشى انهيار الدين في الغرب مع مستويات محلِّقة عالياً من الارتياب، والعدمية، والوثنية، والأنانية، والاكتئاب، والانتحار، ففي العام 1895، شدد اللورد آكتون بثقة على أن: «الآراء تتغير، وقواعد السلوك تتغير، والعقائد ترتفع وتهبط، ولكن القانون الأخلاقي مكتوب على ألواح الخلود». ولكن الخلود لم يدم طويلاً، وفي العام 1995، أعطى يونغ تشانغ رأياً معارضاً: «إذا لم يكن لك إله، فإن نظامك الأخلاقي آنئذ هو نظام المجتمع، وإذا انقلب المجتمع رأساً على عقب، فكذلك سينقلب نظامك الأخلاقي». وكما لاحظ الشاعر روبرت براوننغ (1812 - 89) ملاحظة كالنبوءة، فنحن قد انتقلنا «من عصر إيمان متنوع بالشك إلى عصر شك متنوع بالإيمان».

ومع ذلك، فلدى فحص الموضوع فحصاً أقرب، فإن الله ليس ميتاً، فالدين من كل الأنواع مازال يزدهر، ولا مات التقابل الرئيس بين وجود النظام الأخلاقي أو غيابه، والقضية المحورية هي نوع النظام الأخلاقي الذي يحتضنه الغرب ـ سواء أجاء من نسخة المسيحية الجهنمية، مع تعصبها المخلص وإدانتها، أو من نسخة، معلمنة بالدرجة الرئيسة، من المسيحية، وهي تجديدات أصيلة من المسؤولية الشخصية، والحب، والأخوة الإنسانية تضاهي سابقتها على قدم المساواة.

المسيح يقوم ثانية... ولكنه المسيح الخطأ؟

إن أنشط بلد مسيحي هو الولايات المتحدة، وهي أيضاً أكثر البلدان تأثراً بالتراث اليهودي، وهذان الدينان، على العموم، عمليان على نحو شديد، ويمثلان الاختراق اليهودي ـ المسيحي في مساعدة الذات وتحسين الذات فردياً، والدين مُشَخصن وغير طائفي، ومازال من الحق القول مثلما قال أنطوني ترولب في العام 1860، «إن كل شخص ملتزم بأن يكون له دين، ولكن ليس يهم كثيراً ما هو»[1]. ومع ذلك، فمنذ الثمانينيات من 1980، فإن الحماسة الدينية في أمريكا، وعلى الرغم من محافظتها على الكثير من قوتها بشكل دائم، قد جلّلَها غيم من روح متعصبة على نحو متزايد ومناوئة للمفكرين، وهي إلى المكون الرابع من المسيحية التي وصفناها أقرب منها إلى المكونات الثلاثة الأخرى، وفي العام 1993، روى استطلاع غالوب أن 47 بالمئة من الأمريكيين يوافقون على أن «الله خلق بني البشر في شكلهم الحالي في الأغلب في وقت واحد في آخر 10.000 سنة أو ما يقاربها» ـ وهو الرأي الحرفي في سفر التكوين، ووافق ثمانية وستون بالمئة من الأمريكيين على عقيدة الخلق التي يجري تدريسها في فصول علم الحياة (البيولوجيا). وفي العام 1999، قال 39 بالمئة من الأمريكيين إنهم «ولدوا ثانية مسيحيين». ومع انتخاب جورج دبليو بوش، وإعادة ذلك الانتخاب ثانية، أمنت الأصولية لنفسها فرصة لتسمع في البيت الأبيض، ونادراً ما كان لها ذلك من قبل.

(1) مقتبس في صامويل بي. هنتنغتون (2004) من نحن؟ حوار أمريكا العظيم، المطبعة الحرة، نيويورك.

وإذا نظرنا إلى التركة الخلاقة والإيجابية من المسيحية – وهي المسؤولية الشخصية، والحب بوصفه المحرك لتحسين الذات، والروح الليبرالية من المساواة، والشمول، والعدالة الاجتماعية – نجد أن التركة، إذاً، مزدهرة، ولكن خارج الكنيسة بشكل رئيس. وأنها تقع، في معظم الأمور، في صعود وصعود حركة مساعدة الذات، وتعود جذور هذه الظاهرة الأنجلو ـ أمريكية إلى بنجامين فرانكلين على الأقل، وهو الذي كتب بين العام 1771 والعام 1791[1]، وإلى صامويل سمايلز، وهو طبيب بريطاني وصحفي راديكالي، نشر مساعدة الذات في العام 1859، واستمر التقليد بكتب ذات تأثير ضخم، وكانت من أفضل الكتب مبيعاً مثل كتاب ديل كارنجي كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس؟ (1936)، وكتاب نابليون هيل فكِّر وصر ثريا (1937)، وكتاب نورمان فينسنت بيل قوة التفكير الإيجابي (1952)، ومنذ العام 1980، انفجر سوق مساعدة الذات، بكتب من مؤلفين أمثال أنطوني روبنز، وبولو كولهو، وجيمس ردفيلد، وديباك كوبرا، وكل منهم يبيع عشرات الملايين من النسخ.

إن حركة تحسين الذات تنتشر انتشاراً جيداً في كل أنحاء الغرب، وفي أمريكا اللاتينية، وهي تجذب عبر الطيف الاجتماعي والتعليمي تماماً، وما يشرق من خلالها هو البعد الروحي لمعظم كتب مساعدة الذات التي تعد أفضل مبيعاً، وتجلس النصيحة العملية جنباً إلى جنب، كالخد مع الحنك، مع التأملات في طبيعة الكون ومكان الفرد

(1) كتب فرانكلين ثلاثة كتب في مساعدة الذات: فن الفضيلة، والطريق إلى الثروة، وسيرة ذاتية.

فيه، وعلى الرغم من أن كثيرين من كتاب مساعدة الذات هم من المسيحيين، فإن الدين على وجه العموم خافت الصوت، وهو في الغالب غائب غياباً كاملاً، ومع ذلك، ففي نبرة الكتاب الإنجيلية، وفي الولاء الشديد الذي يتقنه كتاب كثيرون، وفي تفاؤلهم الصارم في أن الطبيعة البشرية تستطيع أن تتحسن، وفي التشديد على أن الناس ينفتحون على القوى السماوية، وفي تسامحهم وشمولهم، وفي ميلهم إلى استيراد الأفكار الروحية من الشرق، وفي تغلبهم على الذّنب، وفي تمسكهم بالحب وضبط الذات بوصفهما المحركين الرئيسين للتحسين، في كل ذلك، ما يجعل الحركة الحديثة لتحسين الذات أقرب إلى حركة المسيح الأصلية من أي كنيسة معاصرة.

وهناك سبب آخر، أكثر شمولاً، تكون روح المسيحية من أجله غير ميتة، فإن المسيحية بدأت في الأصل في فكرة أن الله اهتم اهتماماً عميقاً بكل مخلوق بشري، وأنه يستطيع أن يحيا داخل كل فرد، وهذه الفكرة ـ التي صار يعبر عنها لاحقاً بالاعتقاد أن كل شخص امتلك «روحا» خالدة فريدة ـ هي فكرة من أنجح الأفكار في جميع الأزمان، وذلك لأنها رسخت بجذورها وصارت عامة لا تمحى في كل مكان في الغرب، واليوم تعلمنت فكرة الروح لتصير فكرة النفس[1]، فإذا كان كل

(1) طبعاً، لم تبق الآن كلمة «النفس» تحمل آلياً المضامين الدينية لكلمة «الروح»، ففكرة الخلود، على سبيل المثال، لا تكون بالضرورة جزءاً من فكرة «النفس»، ولكن النفس، مثلها مثل الروح، مفهوم غير مادي، وغير تجريبي، ومراوغ، وهي أعظم وأشمل أداة للإيمان في العالم الغربي، وأساس حضارتنا الثرية والإنسانية، وهي الإيمان الأول الذي لا يستطيع الغرب أن يعيش من دونه.

بني البشر يمتلكون نفساً، شخصية داخلية تجعلهم غير الآلات، وليسوا مجرد جزء من المجتمع، بل أناس مفردون ـ وهو اعتقاد مغروز بمثل هذا العمق داخل الغرب إلى درجة يبدو معها غريباً أن يعبر عنه بوضوح ـ وجب، آنئذ، أن يعاملوا جميعهم باحترام، وكلهم ذوو قيمة، وكلهم يمتلكون الإمكانية لتطوير شخصياتهم، وتعميقها، وتحسينها.

من المستحيل فصل فكرة الروح، أو النفس عن الكفاح، وعن تطوير الذات، والمسؤولية الذاتية، وإذا كان هناك جوهر واحد مفرد للمسيحية، فهو هذا، وهو جوهر بقي حياً سليماً بشكل كامل وبقوة لم تنقص في الغرب اليوم، وهو مستقل عن الاعتقاد الديني تماماً، ومع تحول فكرة الروح تحولاً سليماً إلى فكرة النفس، غيرت المسيحية طبيعة الغرب تغييراً دائماً، وإن قلة تستطيع أن تشك في أن التغيير، في عمومه، تغيير إيجابي على نحو ضخم، وفي هذا المعنى، لا يهم ما يحدث لعدد المؤمنين المسيحيين أو نسبتهم في الغرب؛ لأن المسيحية قد أدت عملها، وهو بالتأكيد تقريباً، عمل لا يمكن الآن نقضه، ولقد حاول النازيون والشيوعيون أن ينكروا فكرتي الروح والنفس، وهذا يشرح إلى حد ما نفورنا من فظاعاتهم الوحشية. ما لم تصل الأمور إلى حد كارثة تنزع إنسانيتنا كلنا، فإن من غير المرجح أن يكون من الممكن في أي وقت الآن أن تجتث فكرة النفس من الغرب.

خاتمة

الله يعمل على نحو أفضل من الكنائس.

الروح المحررة للمسيحية الأولى، واختراعها للنفس الداخلية، وتشديدها على التفريد، ورفض السلطة، والحب في العلاقات الشخصية، وطلباتها للرحمة وللمساواة من أجل المظلومين، وترويجها لضبط النفس ولتحسين الذات، كان لها تأثير حاسم على كل الغرب، جاعلاً منه لا أنجح الحضارات الأخرى فقط، بل، على الأقل حسب التقييم الغربي، أكثرها إسعاداً لشعوبها إلى حد بعيد، وإن المسيحية قد فجرت ضفاف الكنسية، لا بل كل الدين، ويرجح أن إحساساً بالمسؤولية مشتقاً من التفكير من الفرد لنفسه، وبارزاً من كفاحات المرء الخاصة في الحياة، سيكون إحساساً أعمق من ذلك المشتق من طاعة السلطة، ومهما تكن معتقدات المرء، فسيكون أقرب إلى روح المسيح.

وهناك نص فرعي أشد ظلمة، وهو يكمن في الحماسة التبشيرية والتطرف الثوري الموَّرث للغرب، والعالم، من المسيحيين الأوائل[1]. إن موروِّثات العدوان الصليبي المنحرف ـ المدعومة بالعلم، والتقانة وأقوى النظم الاقتصادية والعسكرية التي شوهدت في أي وقت ـ قوّت الغرب

(1) مثل هذا التعصب كان محدوداً عموماً بالمسيحية وابن عمومتها الإسلام. إن الأديان الشرقية تميل إلى أن تكون مفتوحة للاختراق من أفكار أخرى وتشعر بحاجة قليلة إلى التشديد على أن هناك طريقة واحدة صحيحة. والحروب الدينية، المستوطنة في كل التاريخ الغربي والشرقي أوسطي، كانت دائماً نادرة في آسيا.

بقوة شديدة، وأدت في القرن التاسع عشر إلى الهيمنة على العالم، وفي النصف الأول من القرن العشرين، مزقت هذه المورِّثات المنحرفة ـ المفصولة عن الدين، ولكنها المحافظة على قسوة الألف عام ـ الغرب تقريباً، ومن ورائه العالم، إلى أجزاء، وحين يعاد توحيد مورثات التعصب المفرِّق مع الأصولية الدينية، فإن هذه المورثات تبقى تهديداً قوياً للغرب، لا من الخارج فقط، بل من الداخل الذي يعتبر أكثر تهديداً.

obeikandl.com